

الحجاج وآلياته في كتيب "ليلة في جاردن سيتي" لابن عقيل الظاهري

دراسة تحليلية في الخطاب النثري

Argumentation and its Mechanisms in the Booklet of Lailah Fi Garden City

*"A Night in Garden City" by Ibn Aqeel Al Dhahiri
An Analytical Study in Prose Discourse*

د. عائشة بنت صالح فيحان الشمري*

تاريخ النشر: 2019/12/25	تاريخ القبول: 2019/07/12	تاريخ الإرسال: 2019/06/25
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة الحجاج وآلياته في كتيب "ليلة في جاردن سيتي"، لأبي عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، الذي يقوم فيه بمحاجة القصصي، وهدم حججه، وتبيين تناقضاتها، وما تتضمنه من انحرافات. وقد حاول البحث أن يبين ذلك عبر توطئة، ومبحثين، ثم نتائج الدراسة. تناولت التوطئة أبرز مقولات الحجاج. أما المبحث الأول؛ فتناول مظهرات الحجاج في عتبات الكتيب، مقتصرًا على عتبي الغلاف والمقدمة، في حين تطرق المبحث الثاني إلى كشف آليات الحجاج في المتن، مركزًا على أبرزها، وأكثرها شمولية، وهي آلية الهجوم، وآلية الهدم، وآلية النفي والإثبات، وقد توصل إلى نتائج عدة، أبرزها: أن ابن عقيل أراد - عن طريق الحجاج - أن يغير وضعية المتلقي وإقناعه؛ من أجل التخلي عن قبول ما يطرحه القصصي، وقد استطاع أن يرسخ ذلك منذ عتبة الغلاف، التي قامت بتوجيه القراءة والتحفيز على استهلاك النص، وكذلك عن طريق المقدمة، التي أوضحت أبرز النقاط التي سيسير عليها الظاهري، كما استطاع أن يستعمل آليات حجاجية مكنته من كشف تناقضات آراء القصصي وطروحاته.

المؤلف المرسل: د. عائشة بنت صالح فيحان الشمري ayshachomary1401@gmail.com

* جامعة حائل / المملكة العربية السعودية ayshachomary1401@gmail.com

Abstract:

This paper aims to analyze the argumentation and its mechanisms in the booklet of LailahFi Garden City "Night in Garden City" by Abi Abdul RahmanIbnAqeel Al Dhahiri, in which he discusses al-Qasimi's arguments and refutes his arguments and clarifies their contradictions and their deviations. The paper has attempted to address this through the introduction and two sections in addition to their results. While the first section deals with the appearance of argumentation at the thresholds of the booklet, limited to the thresholds of the cover and introduction, the second deals with the disclosure of mechanisms of argumentation in the text, focusing on the most comprehensive and the most comprehensive mechanism is attack, the mechanism of demolition, and the mechanism of denial and proof. The paper concludes to several results such as: IbnAqeel wanted to change the position of the recipient and to convince him to abandon the acceptance of what al-Qasimi has been presented from the threshold of the cover that directed reading and motivation to consume the text, as well as through the introduction that provided the most prominent points that will follow the virtual, Using the mechanisms of argumentation enabled him to detect the contradictions of the opinions of al-Qasimi and his arguments.

Keywords: Argumentation; Debate; Discourse; Miscellany; Mechanisms; Booklet

*** **

توطئة:

أصبح الحجاج واحداً من بين أكثر المناهج النقدية اهتماماً بتحليل الخطابات⁽¹⁾؛ سعياً إلى معرفة أبرز مكوناتها الإقناعية التي تهيم على مساراتها وتوجهها؛ ومن ثم تعمل على توجيه القارئ، وإلزامه بالتسليم والإذعان بحجة ما يقدم إليه؛ لأنه يتضمن نتائج تفرز عدداً من الحجج الموضحة والداعمة لما يطرح؛ قصد إقناع المخاطبين بجداوها، ومن ثم التأثير فيهم وتوجيههم نحو الامتثال والاستجابة لدعوى صاحبها ومقاصده المعلنة من البداية⁽²⁾. إنه يسعى -عن طريق الخطاب- إلى تغيير الاعتقاد، أو الموقف، أو تغييرهما معاً، كما أنه قد يسعى إلى تأكيد رأي أو تأكيد معتقد أو تأكيد موقف؛ بهدف الحفاظ عليه أكبر فترة ممكنة لدى المُستقبل أو القارئ⁽³⁾، وهذه العملية برمتها تتمثل في "تقديم الحجج

والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، تسهم في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجة اللغوية، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها⁽⁴⁾، وذلك كله يتعاوض فيما بينه؛ ليؤكد أن الحجاج يحمل بعداً إقناعياً في خطاب ما، ويشير إلى وجود قضية/فكرة يسعى أحد طرفي الخطاب إلى دحضها أو إثبات صحتها، عبر وسائل إقناعية معينة تقترحها نظرية الحجاج. إن الحجاج، من أجل نجاحه، يتطلب عملية تواصلية؛ كما أن من ركائزه هو التواصل ذاته. لذلك "نحن في موقف تواصلية يتضمن، مثل أي موقف من هذا النمط، رسالة ومشاركين؛ أي دينامية حقيقية"⁽⁵⁾، وتتطلب هذه العملية ثلاثة عناصر، هي: 1- المرسل، 2- الرسالة (القضية المتنازع عليها)، 3- المتلقي (مباشر وغير مباشر). وهي عملية تتواءم مع الطابع العام للحجاج، الذي يبنى «على طرح الدعوى والدعوى المضادة، واستعراض الحجج والأدلة والأمثلة لإفحام الخصم؛ بغية الوصول إلى نتيجة قد يقتنع بها المتلقي أو لا يقتنع"⁽⁶⁾. كما يمكن الحديث عن وظيفة حجاجية عامة للخطاب برتمته عن طريق ربطه بالمتكلم والمخاطب وملابسات السياق التخاطبي والاجتماعي العام وظروفه⁽⁷⁾.

وقد تصدّر الاهتمام بالحجاج المشهد في النقد الأدبي مؤخراً، بعد إهمال كبير له؛ نتيجة للاهتمام بتناقضات الواقع، الذي أفرزه التعدد الفكري والمنطقي والسياسي، الناجم عن التعدد الديموقراطي الذي يتسم به عصرنا، وهو عصر الحجج والجدل والإقناع والتأثير والحوار⁽⁸⁾، إذ لم يعد يُنظر إلى هذا العالم من منظور يقيني، يرتكز على الحسم والإطلاق، بل ينظر إلى الخطابات غير اليقينية والشكّية، التي ينجزها مختلف الذوات، ولم تعد تخضع للمنطق الصوري المرتهن بمبدأ الصدق والكذب، وإنما الارتكان إلى منطق طبيعي يعي خصوصيات الخطابات اللغوية وغير اللغوية في بعدها الحجاجي⁽⁹⁾. بما يشتمل عليه الحجاج من وسال تعبيرية تسمح بحياسة أو تقوية انتباه الجمهور إلى الأطروحة أو النظرة إلى الأشياء⁽¹⁰⁾، لاسيما أنه "يسمح -هو وحده- بوضع مقاييس العقلنة القادرة على توجيه القرارات في ميدان واسع للحياة الاجتماعية المنفلتة من المنطق الشكلي، لمعانقة الخطاب الفلسفي والأدبي، وكذا العام والقانوني"⁽¹¹⁾ أننا إزاء فكر منفتح

على كل شيء، يتخذ قراراته وفق قناعاته الشخصية، و ما الحجاج إلا محاولة لإنارة الطريق أمام هذه القناعات لتكون أكثر قبولا أو أشد نفورا وذلك وفق ما يقدم.

وتعود جذور الحجاج إلى أرسطو⁽¹²⁾، وصولا إلى الدرس اللغوي المعاصر، الذي اتسع مع امتدادات الدرس التداولي وآلياته المتعددة⁽¹³⁾، حتى أصبح عنصرا من أهم عناصر الدائرة التواصلية التي تطرق إليها باحثون كثر⁽¹⁴⁾، وأرسى ملامحها الشمولية رومان ياكبسون في كتابه الذي أطلق عليه "قضايا الشعرية"⁽¹⁵⁾، وجعل فيها لكل عنصر منها وظيفة لسانية مختلفة⁽¹⁶⁾، هي: المرجعية، والانفعالية، والشعرية، والإفهامية، والانتباهية، والميتا-لسانية⁽¹⁷⁾، وقد أضاف جان ميشال آدم إلى هذه الوظائف عنصرا جديدا هو الحجاج⁽¹⁸⁾، ورأى أن التركيز عليه ينتج وظيفة الإقناع أو التأثير أو الحجاج، وهو بذلك يكون قد منح هذه الدائرة عنصرا جديدا كان قد أهمل كثيرا من قبل، وهو عنصرا لا يمنح الدائرة فقط مجالا حركيا، بل ويمنح اللغة وظيفتها المنطقية أيضا، فللغة وظائف متعددة، وتهيمن منها في خطاب ما وظيفة معينة، تجعلها مصبوغة بها، وتكون في كثير من النصوص الوظيفة الحجاجية هي الوظيفة المركزية، التي تحكم الوظائف الأخرى وتوجهها، حتى أن بعض الخطابات يبرز فيها الحجاج بشكل جلي⁽¹⁹⁾، كما هو في الخطاب الذي سوف نقوم بتحليله في هذا البحث.

إن ذلك يؤكد مدى أهمية الدرس الحجاجي حديثا، ومدى تطوره، بل وفي نجاحه في إثبات الأبعاد الإقناعية والتأثيرية للخطابات على تنوعها وتنوع منتجها، وهو ما تنبه إليه أصحاب نظريات الحجاج الذين يؤكدون على أنه لا يمكن لأي قول أن يخلو من حجة⁽²⁰⁾؛ لأن الحجاج هدف أساسي من أهداف الخطاب⁽²¹⁾، وعليه، فإن الحجاج يركز على الإقناع في البعد التواصلية، ويكشف عن أهداف النصوص التي لا تخلو من حجة أو نتيجة معينة تجعل من الخطاب عملا هادفا، يعمل على التأثير، وتغيير الإستراتيجيات والقناعات لدى المتلقين، وهو ما سنحاول اكتشافه في كتيب الظاهري «ليلة في جاردن سيتي»⁽²²⁾.

- الحجاج في كتيب "ليلة في جاردن سيتي"

يقوم الكتيب- الذي سيكون موضع التحليل والتطبيق في هذه الدراسة- على المحاور والنقاش، وهما من أبرز العناصر التي يتجلى عبرهما الإقناع والحجاج، ويكاد الكتيب يقوم

على المناظرة، لولا الإخلال ببعض شروطها، التي حددها طه عبدالرحمن في كتابه "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" على النحو الآتي⁽²³⁾:

1. لا بد لها من جانبين.
2. لا بد لها من دعوى.
3. لا بد لها من مآل يكون بعجز أحد الجانبين.
4. لكل من الجانبين آداب ووظائف.

وقد تحقق الشرطان، الثاني والثالث، في هذا الكتيب، في حين أخل الكتيب بالشرطين الأول والرابع، إذ يبدو معظم العمل مجرد حوار لخطابات القصصي في حال غيابه، وليس الخطاب موجهاً للقصصي وجهاً لوجه، فيما عدا الجزء الأخير من الكتيب الذي حمل صيغة العنوان الخارجي ذاتها "ليلة في جاردن سيتي". وهذا القسم تمت إعادة صياغته بعد الحوار، وتم إرساله إلى القصصي على شكل رسالة كما يؤكد المؤلف نفسه⁽²⁴⁾، وذلك يعني غياب أحد الطرفين فعلياً، وإن حضر خطابه، وهذا يمثل إخلالاً بشرط المناظرة؛ لأنه من "المعروف أن يجتمع المتناظران في حيز واحد، ويقومان بالمنافسة الخطابية وجهاً لوجه"⁽²⁵⁾، وهو ما يجعل الظاهري يتفرد في إبداء البراهين الخاصة به، دون ترك مجال للقصصي ليبيد حججه وبراهينه فيما ذهب إليه، وكذلك إخلاله بالشرط الرابع المتمثل في آداب المناظرة، إذ ينطلق من فكرة مسبقة في إيراد الحجج فيكاد يكون بعض حججه مسلمات مسبقة، وفيها هجوم على الطرف المقابل (الخصم)، تارة بتكفيره⁽²⁶⁾، وتارة بالدعاء عليه⁽²⁷⁾، وتارة باتهام آرائه «بالغثيان»⁽²⁸⁾، فضلاً على اتهامه بالزندقة، والخطيئة، وإغفال العقل⁽²⁹⁾، ويتهم أسلوبه بالطراوة، وضعف اللغة، والقدرة على المغالطة والإثارة⁽³⁰⁾، في حين أنه، كما يظهر من إهداءاته إليه⁽³¹⁾، التي أوردتها الظاهري في مقدمته، إذ كان يدعو إلى استعمال العقل، والتخلي عن المسلمات، لا لتجاوزها بل لإثباتها عقلياً، وإن بشيء من المغالطة، وذلك يخلّ بأخلاقيات المناظرة التي حددها طه عبدالرحمن بـ⁽³²⁾:

1. أن يكون المتناظران متقاربين معرفة ومكانة.
2. أن يمهّل المناظر خصمه حتى يستوفي مسأله.

3. أن يتجنب المناظر الإساءة إلى خصمه بالقول أو الفعل؛ بغية إضعافه عن القيام بحجته.

4. أن يقصد المناظر الاشتراك مع خصمه في إظهار الحق والاعتراف به.

5. أن يتجنب المناظر محاورة من ليس مذهبه إلا المضادة.

إذن، يمكن أن نقول: إن كتيب الظاهري يتكون من بنية نصية واحدة، لكنها تحتوي على خطابين متباينين، يتبادلان الأدوار الكلامية. ينتهي كل منهما إلى الطرفين المتناظرين مع غياب أحدهما أثناء التأليف، وهو كتيب ينمو بفعل تبادل الأدوار بين الخطابين حسب قانون الفعل ورد الفعل⁽³³⁾. إنه نص تتوفر فيه عناصر من المناظرة وليست عناصر المناظرة كلها، وهو ما جعل الدراسة تعتمد على التركيز على توفر آليات حجاجية بعينها فيه، تمثلت في "الهجوم، والهدم، والنفي والإثبات"، وهي آليات تعتمد على توفر الحجة والحجة المضادة في معظم الأحيان، أو توفر قول (رأي) (القصبي) واستنتاج حجة أو حجج ونتيجة أو نتائج منها في ظل غياب المناظر (الخصم)، معتمداً على إستراتيجية الهدم التي تهدف إلى تقويض/هدم ما بناه القصبي، عبر علاقة استدلالية تعتمد على آليات الإدعاء وآليات الاعتراض⁽³⁴⁾، فإذا كان القصبي قد بنى فإن الظاهري يهدم هذا البناء، وإذا كان القصبي قد ادعى فإن الظاهري يعترض، وكلاهما يدعي صحة ما يذهب إليه.

وسوف يقوم هذا البحث باستجلاء آليات الحجاج في الكتيب، وما تذهب إليه من هدم وبناء وإدعاء واعتراض، كما سيقوم بالكشف عن طرائق اشتغال الحجاج عبر مبحثين: الأول يتمثل في دراسة "تمظهرات الحجاج في العتبات النصية"، والثاني عبر دراسة "آليات الحجاج في الخطاب/المتن في الكتيب".

أولاً: تمظهر الحجاج في العتبات النصية

تعد العتبات النصية من أبرز موجهات النصوص وقراءاتها⁽³⁵⁾، ولا تقتصر وظائفها على البعد الجمالي فحسب، بل تمتد إلى إقناعه بتلقي النص أو التخلي عن ذلك⁽³⁶⁾، ويتمثل ذلك فيما أطلق عليه جيرار جينيت بوظيفة الإغراء⁽³⁷⁾، وهي وظيفة إقناعية بالأساس تبطن الحجاج، وقد أطلق عليها جاك دريدا مصطلح «فارمكونية»⁽³⁸⁾، مستعيراً مصطلح أفلاطون: «فارمكون» الذي يحددها باعتبارها سُمّاً وترياقاً في آن واحد⁽³⁹⁾. فإما أن تكون سُمّاً قاتلاً، فينفر القارئ من قراءتها وقراءة النصوص ويقضي عليها بالموت، وإما

أن يكون ترياقاً لها، فيحفز القارئ على قراءتها، ويحضه على الإقبال عليها؛ مما يضمن لها الحياة ويسهم في سيرورتها ويدفعها إلى أبعد من نفسها وأبعد مما يتوقعه القارئ منها غالباً ويَرْجُو ثوابها⁽⁴⁰⁾. وتجدر الإشارة -هنا- إلى أن هذا البحث لن يهتم بالعتبات باعتبارها فضاء مجرداً عن نزوعها الحجاجي، بل بكونها فضاءً توجيه الحجاج الأول في المدونة المدروسة، وسيقتصر البحث على دراسة عتبتين اثنتين، هما: عتبة الغلاف باعتبارها الفضاء البصري الإقناعي الأول⁽⁴¹⁾، وعتبة المقدمة باعتبارها الفاتحة النصية الأولى، التي تحدد توجهات الكتاب وعناصره وحمولاته المعرفية بشيء من الإيجاز، لكنه إيجاز تعريفي⁽⁴²⁾، وهما عتبتان لهما شأنهما التوجيهي الكبير في العمل برمته؛ لذلك عمدنا إلى إفراد حيز لهما في هذا البحث.

أ- تمظهرات الحجاج في عتبة الغلاف

يعد الغلاف العتبة البصرية الأولى التي يقابلها القارئ، وهي عتبة تعتمد- عبر عناصرها- على لفت انتباه القارئ إلى جملة من القضايا الفنية والمنطقية التي تدفعه فعلياً إلى استهلاك العمل الأدبي، إذ يمثل "أول من يحقق التواصل مع القارئ قبل النص نفسه"⁽⁴³⁾. وتحتوي عتبة الغلاف -هنا- على مجموعة من العناصر هي: العنوان "ليلة في جاردن سيتي"، وجملة من الملفوظات المتتابعة، واسم المؤلف، ولوحة على شكل ورقة يتم تمزيقها، مكتوب فيها كلمة: "أباطيل"، وهذه العناصر- في مجملها- تقدم نتيجة واحدة، تكاد تعد النتيجة المركزية الكلية التي توصل إليها المؤلف، وهي: أن ما تتم محاورته هو أباطيل، وهي نتيجة نستشفها من جملة الحجج التي يسوقها الظاهري في هذا الفضاء البصري، ومنها أن القصصي "ينفي وجود الله وكماله، وطرق التوثيق التاريخية عند المسلمين"⁽⁴⁴⁾، فالعنوان يضمن حجة هي أن هذا الكتاب هو نتيجة لحجاج مستفيض ومناظرة مطولة مع القصصي، لكنه يبقي -فقط- على ما يدل على ذلك بشيء من الاقتصاد، وهو ما توضحه في الجملة التي تلي العنوان مباشرة، إذ يقول: "هذا الكتيب هو محاوره للقصصي، ونقاش له، في مسائل تتعلق ببراہین وجود الله وكماله، وطرق التوثيق التاريخية عند المسلمين"⁽⁴⁵⁾. وهذه الجملة تقدم- أولاً- المؤشر الجنسي للكتيب. فهو محاوره، ونقاش، وتقديم، وثانياً: الهدف من هذا الكتيب هو الإقناع والمحاجة والبرهنة. إذ

المحاورة والنقاش لا يمكن لهما أن ينجزا إلا في فضاء الإقناع والمحااجة وبنيتهما، وهو من ثمَّ يحدد مضامين الكتيب وطرائقه الحجاجية الإقناعية، التي يتخذ منها المؤلف وسيلة للإقناع، وطريقة لحمل القصصي على التمسك برأي ما أو التخلي عنه، وتلك من أهم سمات الإقناع الممتدة منذ أرسطو حتى يومنا هذا، مع تعديلات وإضافات على صعيد الفكر، وعلى صعيد النظرية والإجراء أيضا.

وذلك كله ما يقوم عليه كتيب "ليلة في جاردن سيتي". وهو كتيب يعلن منذ التوضيحات التي تلت العنوان مباشرة في فضاء الغلاف الخارجي، أنه محاورة في مسائل مخصصة: أي أنه خطاب حجاجي، يحاول أن يثبت النتيجة التي توصل إليها أيضا في هذا الفضاء، وهي نتيجة مفادها أن طروحات القصصي في شتى كتبه نموذج حقيقي للمغالطات التي يحذر منها المنطق والفلسفة⁽⁴⁶⁾. إن تلك المؤشرات تؤكد النزوع العقلي من أجل إثبات الحقائق، التي يراها المؤلف صائبة، ويرى أن القصصي قد وقع فيما يخالفها، ويدعم ذلك صورة الغلاف التي تأتي أسفل فضاء الغلاف، وهي صورة مكتوب فيها كلمة: "أباطيل" في وريقة، تَمَسُّكُ بها يدان من جانبيها، وتمزقها تمزيقا غير كلي. وذلك كله يثير في ذهن القارئ مجموعة من التساؤلات، نحو: ما هي المسائل التي اعتمد عليها الظاهري في محاورته، وكيف تمت تلك المحاوره؟ وما نتائجها؟

إن الغلاف بمحتوياته تلك، وبما تضمنه من علامات دالة، كل ذلك يقدم صورة استباقية للقارئ، بل إنه يقدم النتيجة المركزية له، المتمثلة فيما أسفرت عنه المحاوره والنقاش مع القصصي. حيث أثبت أن ما يركز عليه القصصي هو أباطيل، وهو- من ثم- ينسف طروحاته، وينفي عنها كل صحة، وكل مصداقية، وكل إيمان، إنها كفر وتمرد، وخروج عن الدين كما يؤكد ذلك في المقدمة كما سترى.

ب- تمظهرات الحجاج في عتبة المقدمة

تعتبر المقدمة في كتيب الظاهري بمثابة البداية، أو العتبة الأولى التي تشغل أهمية إستراتيجية في فهم آليات تكوّن النص وانفتاحه، كما تشكل دورا توجيهيا يقود الدلالة من الكثافة والغموض إلى حقول تَوْسِيعِ المعنى وتضيئه، كما تلعب دور التواصل مع القارئ، وتحدد عددا من المنطلقات الأولية عن الخطاب النصي وجنسه ونمطه وطريقة اشتغاله⁽⁴⁷⁾.

الحجاج وآلياته في كتيب "ليلة في جاردن سيتي" لابن عقيل الظاهري

و يحدد الظاهري في مقدمته الخطوط العامة لكتيبه، ويوضح فيها أن ما سيأتي في أجزاء كتيبه هذا إنما هو حجاج قائم على النقاش والمحاورة، التي تمت بينه وبين القصصي في منزله بجاردن سيتي. ويوضح الكاتب مجموعة من الملاحظات التي يمكن أن يعدها القارئ مدخلا أوليا إلى الكتيب، وفي هذه المقدمة يذكر وجهة نظره من القصصي، كما يوضح وجهة نظر القصصي منه، وفي كلتا الوجهتين حوار قائم على مجموعة من الحجج. فالقصصي ينظر إليه باعتبار أنه نابه، وذكي، وفطن، خارج سياقات المنزع الأيديولوجي الذي يشده إليه، وبعيدا عن رجل الدين الذي يهيمن عليه، ومنفلتا من الحكم المسبق الذي يكبله، وهي نتائج تبطن حججا، تسعى إلى جعل الظاهري يتمسك بما يزعمه فيه، وذلك يأتي في واحد من إهداءاته التي وضعها له في أحد كتبه، يقول فيه:

«تحية محبة لباسم القلب والضمير والوجه والحياة.. عابس التعاليم والعظاات والقراءات والصلوات.. للنابض الخافق الطلعة والرؤية والحركة والأحاسيس والأشواق الحضارية والفنية والإنسانية.. إنه الأستاذ أبو عبدالرحمن ابن عقيل الذي تشتبي أن تراه وتلقاه وتحاوره أكثر من أن تشتبي القراءة له»⁽⁴⁸⁾.

وتظل فكرة محاولة إقناع الظاهري، بالتخلي عن الجمود الذي يراه فيه، في سائر إهداءاته التي ذكرها الظاهري في مقدمة كتيبه هذا، ومنها:

"راغب في إثارة الفنان بلا إيمان والمؤمن بلا فن.

المؤمن تلقينا وتعلينا وإرهاباً.

والفنان موهبة وحياة.

الصديقي الأستاذ أبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري"⁽⁴⁹⁾.

إن هذه الإهداءات تختزل رؤية القصصي، ليس في الجانب الظاهري فحسب، بل وفي رؤيته إلى الحياة والدين والتدين والتعاليم والفن، كما تدل على أنه يحاول، عن طريق كتيبه التي وضع عليها إهداءاته، أن يقنع الظاهري بالتخلي عن ما يراه فيه عيبا، ويحثه على التفكير الحر، وإعادة النظر في طروحاته وفي مقولاته التي يرى عن طريقها أن الظاهري واقع في ضلال وغيبوبة من زاوية نظره، ويسعى إلى حمله على تجاوزها، وإعادة النظر فيها، ويتخذ إلى ذلك الإشارة إلى محامد الظاهري ومحاسنه، لكنها إشارات تبطن كشفا - من

وجهة نظره- لما يمتلكه الظاهري من ضدّيات لتلك المحامد، لقد ارتكزت حجج القصصي على جملة من الأمور. ركّز عليها بشيء من الوضوح في هذه الإهداءات، ومنها: التركيز على الجانب الأخلاقي للظاهري، وكذلك على الدوافع التي يراها توجه الظاهري للتعامل بذلك السلوك، وتلك الردود، وهي إيمانه المطلق بعيدا عن التفكير فيما يؤمن به، أو فيما أطلق عليه "المؤمن تلقينا وتعلّينا وإرهابا". وهو رأي يذهب إلى أن الظاهري ينطلق في طروحاته من مقولات جاهزة، يتلقاها تلقينا دون تفكير في صحتها أو عدم صحتها، وهي فكرة تلتقي مع ما تطرق إليه فيليب بروطون في كتابه "الحجاج في التواصل": "إذ يرى أن الدين، بعد العلم، حقل آخر، لا يخضع للحجج. فالإيمان؛ أي الإيمان الحق، و"السادج" يتم تبادله وتلقيه بوصفه بداهة، لا يخضع للتفسير ولا للحجاج"⁽⁵⁰⁾؛ لأن العلم والدين لا يقبلان الشك، ومن ثم فإن الحجاج الذي يقوم- فيما يقوم عليه- على دراسة النصوص الشكّية لا يقبل أي رأي فيه، إنه من قبيل المسلمات واليقينيات التي لا تقبل التشكيك؛ لذلك وصف القصصي بالكافر "الذي ألّف "الصراع بين الإسلام والوثنية" ممن يؤسف له على الكفر"⁽⁵¹⁾.

أما الظاهري ففي تعقيباته على تلك الإهداءات لا يتوانى في الكشف عن تناقضات القصصي، فعند ما يقوله "غثيانا"، ووصمه بالكفر، والزندقة، والانحراف، وهي نتائج استنتجها الظاهري من محاوراته وكتبه وإهداءاته، وتدل تعقيباته عليها على أنه كان يرى فيها- وفي القصصي نفسه- ضلالا وانحرافا، ويدعوا الله له بالهداية والصلاح والتوبة. و كل ذلك يؤشر إلى الغاية من الكتيب جملة وتفصيلا، فهو كتيب قائم على الحوار، وشيء من المناظرة، والحجاج، والإقناع؛ رغبة في العودة والصلاح.

إن المقدمة - إذن- تضطلع بتأدية جملة من الوظائف، نحو وظيفة تشخيص حالة القصصي من حواراته وخطاباته، وكذلك وظيفة تحديد النتائج الكبرى التي توصّل إليها نحو: كفر القصصي، وزندقته، وعدم جدوى ما يكتبه، وكذلك وظيفة إبراز الهدف من هذا الكتيب؛ وهي توضيح ضلالات القصصي، وكذلك وظيفة تشخيص حالة الظاهري من وجهة نظر القصصي في إهداءاته.

ثانيا: مظهرات الحجاج في المتن

يتمظهر الحجاج في المتن عبر ثلاث آليات مهيمنة، يخلقها المتن نفسه، ويجعل منها مدارات الحجج ونتائجها، ويسعى بوساطتها إلى الضغط على القارئ من أجل دفعه إلى التسليم بما قام بطرحه: في سبيل نفي صدقها طرحه الخصم، وهذه الآليات هي:

أ- الحجاج بالهجوم

ب- الحجاج بالهدم

ج- الحجاج بالنفي والإثبات.

وقد قام البحث بالتطرق إلى كل آلية على حدة، على نحو ما يأتي:

1- الحجاج بالهجوم: ويدخل هذا النوع من الحجاج ضمن ما يطلق عليه بلانتان "الحجاج المركز على الشخص"⁽⁵²⁾، وهو نوع يتحول من محاجة الفكرة إلى التركيز على مهاجمة الشخص صاحب الفكرة⁽⁵³⁾، ونعني به- هنا- أن الظاهري يتلقى حجة القصصي ويعتمد إلى مهاجمتها؛ بغرض إقناع القارئ بعدم صحتها، ويعتمد إلى مهاجمة القصصي بغرض إقناع القارئ بانحرافه، فيلتفت القارئ حينئذ إلى ما يحمله قول الظاهري من قوة لغوية عبر حجج قاسية تحمل جملة من التهم في أقواله، مثل: "اعتدائه على العقل"⁽⁵⁴⁾، "هذا الغثيان"⁽⁵⁵⁾، "من تقليعات القصصي"⁽⁵⁶⁾، "فاسد القياس، وقاصر الاستقراءات، وكاتب مكرر"⁽⁵⁷⁾، "سذاجة"⁽⁵⁸⁾ وغيرها. وهي تهجم -تارة- على القصصي ذاته، وتارة على خطابه، أو تتضمن تهجماً على خطاب القصصي بغرض التهجم على القصصي نفسه. إن الناظر إليها يجدها حججاً منظّمة، تسير في خط هجومي واحد في سبيل إثبات قصور فكر القصصي، وضحالة آرائه، وزيفها، وسفسطتها- من وجهة نظر الظاهري- كما يقول: "وأول زندقة وخطيئة للقصصي كتابه "هذه الأغلال"، وذلك أول اعتدائه على العقل؛ لأنه يتعامل مع الأشياء بسفسطة"⁽⁵⁹⁾، وهو في هذا القول يقدم نتيجة (القصصي زنديق)، وحجة (يعتدي على العقل)، وسببا (لأنه يتعامل مع الأشياء بسفسطة)، وثمة علاقة حجاجية تربط بين هذه العناصر يمكن صياغتها على النحو الآتي:

- القصصي يعتدي على العقل؛ لأنه يتعامل مع الأشياء بسفسطة، إذن فهو زنديق.
- إن القصصي يعتدي على العقل، ويتعامل مع الأشياء بسفسطة، فهو زنديق.
- إذا كان القصصي يعتدي على العقل، ويتعامل مع الأشياء بسفسطة، فهو زنديق.

- بما أن القصصي هو الذي اعتدى على العقل، وتعامل مع الأشياء بسفسطة، فهو - من وجهة نظر الكاتب- إذن زنديق.

وتلك الصياغات المتنوعة لا تتوقف عند ذلك، بل يمكن تقديم صياغات أخرى لها تدعمها وتقويها، وذلك يبين تعدد أنواع العلاقات الرابطة بين عناصرها، فتارة تكون علاقة تعليلية، وتارة تكون علاقة استنتاج، وأخرى تكون علاقة تبرير، وغيرها تكون علاقة سببية واستلزامية. فمفهوم العلاقة الحجاجية مفهوم واسع وشامل، بحيث يشمل كل هذه الأنماط، وغيرها من العلائق القائمة بين الحجة والنتيجة⁽⁶⁰⁾. وهي علاقات تحاول أن تقنع القارئ بالتخلي عن قراءة فكر القصصي بآثاره النفسية والاجتماعية، ولها سياقاتها الأيديولوجية الممتدة عبر التاريخ، وهي مهمة لها آثارها النفسية والاجتماعية، ولها ثقلها على توجيه الرأي نحو شخص ما؛ من أجل إيقافه زمنياً عند نقطة واحدة في منظور الناس. ويقول الظاهري في موطن آخر: بعد إيراد عناوين مجموعة من كتب القصصي: "ومدار هذا الغثيان على العناصر التالية:

- 1- إنكار الحقيقة الأزلية وما غيبه الله عن خلقه.
- 2- مهاجمة الأديان والأنبياء.
- 3- الاستخفاف بالموهبة العربية.
- 4- التحدي للقضايا العربية والإسلامية.
- 5- التغني بالآلام الإنسان وتعاسته، والاحتجاج بذلك في فلسفة المعاصر الأربعة المذكورة آنفاً"⁽⁶¹⁾.

وهذا القول يركز على نتيجة مفادها: (كتب القصصي غثيان)، وخمس حجج تتضافر فيما بينها لترسخ "غثيانية" ما وصمته بالغثيان. وهي حجج لا تسعى إلى إثبات صفة الغثيان على كتب القصصي فحسب، بل تتعدى ذلك إلى الهجوم على القصصي نفسه بكونه ينتج غثياناً، وهو حجاج يركز على الخطاب، كما يركز على الشخص وسلوكه، من حيث إنه يركز على مميزات سلبية خاصة بالقصصي - من وجهة نظره- الذي يدافع عنها، وبذلك يتحول النقاش من المسألة إلى مناقشة الشخص المحاج، إما لإبراز تناقضه وإما للمهاجمة الشخصية⁽⁶²⁾.

إن صفة "الغثيان" التي توصل إليها الظاهري تمثل النتيجة المركزية التي قامت على خمس حجج متوالية (خمسة أدلة)، وقد قدمها الظاهري على الحجج لأهميتها، من وجهة نظره، ولمعرفته أنها هي التي ستدفع المتلقي إلى البحث عن الأسباب (الحجج) التي جعلت الظاهري يطلقها على كتب القصصي، فهي كذلك لأنها -كما يرى الظاهري-: تنكر الحقيقة الأزلية وما غيبه الله عن خلقه. ولأنها تهاجم الأديان والأنبياء، وتستخف بالموهبة العربية، وتحدي القضايا العربية والإسلامية. وتتغنى بالآلام الإنسان وتعاسته. ولأن ذلك كذلك فهي غثيان، والغثيان كما يرد في لسان العرب هو: "خُبْتُ النفس. وَغَثْتُ نَفْسَهُ تَغْثِي غَثِيًّا وَغَثِيَانًا وَغَثِيَتْ غَثًى: جاشت وَخَبَّتْ. قال بعضهم: هو تحلُّبُ القَمِّ فَرَبَمًا كان منه القَيِّءُ، وهو الغَثِيَان" (63). وهو حكم قاطع لا رجعة عنه، ولا مجال للقصصي في هذا الكتيب للرد عنه.

وعلى نمط الحجاج بالهجوم يقول القصصي في فاتحة أول مبحث (التفكير شاهد ضرورة): «من تقليعات القصصي، أسرع الله بفيئته، أن التفكير شاهد زور!!» (64)، ويتمثل الهجوم في وصف آراء القصصي بالتقليعات، وهو وصف يتضمن نتيجة، وحجتها (القصصي يرى أن التفكير شاهد زور)، ويمكن صياغة العلاقة التي تربط بينهما لتوضيح ذلك على النحو الآتي:

- القصصي يرى أن التفكير شاهد زور إذن فرأيه تقليعات،
- لأن القصصي يرى أن التفكير شاهد زور فرأيه تقليعات،
- إذا كان القصصي يرى أن التفكير شاهد زور فإن رأيه تقليعات،
- آراء القصصي تقليعات؛ لأنه يرى أن التفكير شاهد زور.

وهي صياغات تنوع لتؤدي الغرض ذاته، المتمثل في إثبات عدم سلامة رأي القصصي. ويوضح الظاهري علة ذلك، وهي "لأن شهادة الزور خلق رديء" (65). ولا يقتصر الهجوم على ذلك فحسب، بل جاء في صيغة الدعاء عليه بالموت في هذا السياق ذاته، وتحديدًا في: "أسرع الله بفيئته". ويتضح من هذا كله أن الظاهري يعتمد الإستراتيجية التوجيهية، التي يحاول عن طريقها تجسيد سلطته على القصصي بحكم التفاوت الإيديولوجي بينهما، الذي

يحاول الظاهري تعزيره؛ وهو ما جعل رغبته في الاستعلاء بمنزلته الذاتية تفوق رغبته في تهذيب الخطاب⁽⁶⁶⁾ "بالتى هي أحسن".

ومن الحجاج بالهجوم على شخص القصصي أن الظاهري يعدّه حائراً، وعد نغمة الحيرة هذه تُعجِبُ ذوي الفكر المحدود، وأن نغمة العزف الأحادية التي يعزفها القصصي تزعج أصحاب الفكر المتعدد⁽⁶⁷⁾، وتجعلهم "كمن يترنح على نهيق الحمير ويغص بسيمفونية هادئة باسمه"⁽⁶⁸⁾، ويختتم ذلك بإيراد النتيجة التي يستنبطها من هذه الحجج: "هكذا كنت أيها القصصي لا ترى من مجالي الكون الخلافة ما يبهج أويفرح"⁽⁶⁹⁾. وهي نتيجة تختزل الهجوم، وتجسد الحجج التي تمثل الأسباب التي أدّت به إلى كونه يبدو كذلك، وقد تجلّى الرابط بين الحجج والنتائج على النحو الآتي:

أنت كذلك (حائر)؛ لأنك = أحادي الفكر، عزفك منفرد يزعج ذوي الأفكار المتعددة، تطرب أفكارك الزاعقة (نهيق الحمير) لكنها لا تؤثر. أو يمكن صياغتها على النحو الآتي: أنت أحادي الفكر، عزفك منفرد يزعج ذوي الأفكار المتعددة، تطرب أفكارك الزاعقة (نهيق الحمير) لكنها لا تؤثر، إذن فأنت كذلك (حائر).

وتأتي هذه الحجج ونتيجتها الشمولية في فاتحة القسم الخامس المعنون بـ "ليلة في جاردن سيتي"؛ لتمثل حينئذ المحور الذي يختزل القسم كله، ويصبح النتيجة المركزية له كله. وذلك يقدم صورة القصصي – من زاوية نظر الظاهري – إلى القارئ بعينها الكلي (المفكر بصوت عال/ نهيق الحمير، عديم الجدوى...)، وهي صورة تعطل - منطقياً - كل فاعلية للقصصي، وكل حجة، وكل منطق قد يحاجّ به، بما يتواءم مع شروط المحاجة والمناظرة نفسها، التي تفضي إلى مآل يكون بعجز أحد الطرفين⁽⁷⁰⁾. وهذه الصورة المقدمة هي صورة تمثل النتيجة الكبرى لما سيأتي لاحقاً، وهي النتيجة الهجومية النافية، والرافضة، والفاضحة له، وهو ما يتضح من قول الظاهري: "وما من هدي، وليس من حاجتي، أن أزري بك/ بيد أن نقدي لمنهجك في النقاش ليلة 1394/9/21 هـ بجاردن سيتي سيزري بك، وذلك ضرورة استهدفتني ولم أستهدفها"⁽⁷¹⁾. وذلك يدل على أن الظاهري قد تنبه إلى أن ما سيقدمه هنا يغلب عليه الهجوم، لذلك حاول أن ينفي ذلك في نيته، ويرده إلى القصصي نفسه.

لقد مثل الهجوم أحد أبرز آليات الحجاج التي ارتكز عليها الظاهري في سبيل تبیان نقاط ضعف القصبي، واختلالات ما يذهب إليه؛ لتباين عجزه وعجز آرائه وعدم صحتها.

2- الحجاج بالهدم: وهو حجاج يسعى فيه المحاج إلى هدم حجج الخصم والقضاء على ما فيها من نقاط قوة، اتخذها أداة لإقناع الطرف الآخر، والتأثير عليه على مستوى المشاعر والفكر والفعل، ويدفعه من ثم إلى هدم هذا الخطاب الحجاجي الموجه إليه، ويبني على أنقاضه خطاباً آخر، تابعا لمقصديته⁽⁷²⁾. إنه يقوم على هدم الفكر والرأي المعارضين جملة وتفصيلاً؛ لأن المحاج يرى فيه مغالطة أو زيفاً أو ادعاء كاذباً، ومن ثم فإنه يعتمد إلى توضيح مكان زيفه وخداعه ومغالطته من وجهة نظره، ويتجلى ذلك في رأي القصبي، ورد الظاهري عليه في الآتي:

"من تقليعات القصبي، أسرع الله بفيئته، أن التفكير شاهر زور!! فتقول لماذا؟.

فيقول: كل من يتكلم ويقتنع ويحاول حمل الآخرين على الإيمان باقتناعه: إنما يعني ذاته، ويحاول الإقناع بها؟.

قال أبو عبد الرحمن: العنونة للتفكير بأنه شاهد زور محاربة للفكر باسم الأخلاق؛ لأن شهادة الزور خلق رديء، بيد أن المدخل مغالطة صارخة تدعو إلى التفكير؟! فهل هذا تناقض؟!⁽⁷³⁾.

إن هذا الخطاب يتضمن الحجة، والحجة المضادة لها، الرأي والرأي المقابل، الذي يهدمه، فقد بنى الظاهري رأيه المضاد على عنونة القصبي، وعلى رده على السؤال لماذا؟ ويمكن تفصيل حجة القصبي على النحو الآتي:

التفكير شاهد زور، وهذه نتيجة بناها القصبي -كما يتضح من إجابته عن السؤال لماذا؟- على حجة (التفكير الذي يرغب الآخر بالإيمان المطلق، بناء على قناعاته يعد تفكيراً شاهد زور)، وهي حجة عقلية منطقية ترفض من زاوية معينة إرغام الآخر على اتخاذ تموضع معين دون نقاش؛ لأن ذلك يتنافى مع الفطرة السليمة (لا إكراه في الرأي)، وكأنه يقول: إن كل من يقتنع ويحاول إرغام الآخرين بقناعاته تفكيره شاهد زور؛ لأن في ذلك مصادرة للفكر والرأي.

وقد قام الظاهري بهدم هذه الحجة ونتائجها، إذ رأى «أن العنونة للتفكير بأنه شاهد زور محاربة للفكر باسم الأخلاق؛ لأن شهادة الزور خلق رديء»، فقد أورد في قوله حجة (وضمنيا نتيجة) هي (شهادة الزور خلق رديء) ونتيجة هي (إذن فإن العنونة للتفكير بأنه شاهد زور محاربة للفكر باسم الأخلاق)، ويقوم هدم الظاهري لرأي القصبي على شيء من المغالطة، إذ هو يقوم بهدمه لا لتوضيح محتوياته، بل لإثبات رأيه هو بدلا عنه، بغض النظر عن مسألة الفكر والتفكير السليمين في قول القصبي، إذ التفكير المنطقي يؤكد ما ذهب إليه القصبي (وإن كان قائما على مغالطة)، وهو أن إجبار الآخر بالتسليم بما نسلم به دون تفكير أمر غير صائب؛ لأننا حينئذ نحاول تصدير قناعاتنا ورفض قناعات الآخرين، كما أنه لا وجود للأخلاق في حجة القصبي، إنما يوجد الفكر وما يترتب عليه؛ أي تحرير التفكير لكنه قائم على مغالطة كما أشرت.

لكنه يوضح لاحقاً أن القصبي يريد شجاعة التفكير بالنقد والشك والتكذيب. ويقوم الظاهري بدحض هذه الفكرة بربطها بالمحارب والمنابر التي تعلم بها الصلوات، إذ لا يدحض الفكرة بالفكرة، بل بربطها بالجانب الروحي المسلم به؛ لمعرفته أن الإيمان لا يخضع للحجاج، وهو من ثم يعد إرغاما على التسليم، ومن ثم انتزاع الإقناع بالقوة⁽⁷⁴⁾، فهو إذن حجاج بالسلطة، بل هو حجاج سلطة لا نقاش فيه⁽⁷⁵⁾؛ إذ «الرأي الذي نقتحه على المتلقي مقبول لديه؛ لأن سلطة تدعمه»⁽⁷⁶⁾، والسلطة هنا هي سلطة المقدس، وقد لجأ الظاهري إلى ذلك ليعطي مصداقية لما يقول، إذ السلطة مرتبطة بإضفاء قيمة على قول ما⁽⁷⁷⁾؛ لأن المحارب والصلوات تعني الإيمان، بل هي من أخص خصائص الإيمان، والإيمان كأي الصدق، ومطلق، والاستشهاد به يعني الإدلاء بالقول الصادق⁽⁷⁸⁾، ومن يشكك بذلك أو ينفيه يكون رأيه غير مقبول.

ومن حجاج الهدم أن يهدم ما يحاول القصبي أن يقدمه حجة على الشك في عدل الله سبحانه وتعالى، فإذا كان القصبي قد رأى أن الله سبحانه وتعالى غير عادل «بأن جعل هذه الحسناء مجدورة الوجه، وجعل فلانا بائسا»⁽⁷⁹⁾، فهو يقدم حجة ونتيجة، فنتيجته هي أن الله -جل وعلا- غير عادل، وأما حجته هي أن أفعال الله -سبحانه- ليست على وشيعة واحدة، ولا تقوم على المساواة، وهو حجاج بالجهل مرتبط بمسؤولية الإدلاء بالبيئة، يحاول القصبي بوساطته أن يقدم دليلا بغياب الدليل، وذلك يبين أنه يحاج

بوساطة غياب المعرفة⁽⁸⁰⁾، وهو ما سعى الظاهري إلى توضيحه عبر هدمه حجةً ونتيجةً ومنطقًا، مستندًا على عناصر هدم متسلسلة، إذ يقول معقبا عليه:

"فقلت: إن نقاشنا في وجود الله، وليس في أفعال الله، والبحث في عدل الله فرع للبحث عن وجود الله.. فعليك أن تدفع أدلتي هذه، ثم عليك أن تورد البرهان على أن الله تعالى عما تقول غير موجود، ثم تنتقل إن أحببت إلى أفعاله"⁽⁸¹⁾.

فقد توصل الظاهري إلى نتيجة خطأ قياس القصيمي ومحاجته ومغالطته بالخروج عن موضوع الحجاج أصلا، إذ قضية الحجاج هي وجود الله، والقصيمي ينتقل من المحاجة في ذلك إلى المحاجة في أفعال الله، وذلك ما يركز عليه هدم الظاهري لرأي القصيمي، ويتفوق عليه، إذ يكشف تناقضه في الضغط عليه بوساطة النتائج الناجمة عن مبادئه الخاصة، أو عما يوافق عليه هو نفسه⁽⁸²⁾، ويمكن أن نتبين الرابط بين الحجة والنتيجة بصياغتها على النحو الآتي:

إذا كانت قضية وجود الله هي أصل نقاشنا فإنك قد خرجت عنها، ومن ثم فإن حجتك ونتيجتك خاطئة.

وهي صياغة تشدد على الإلزام بالالتزام بقضية المحاجة؛ لأن الخروج عنها ينفي المحاجة، ومن ثم يهدم أركانها؛ وعليه، فإن الحجاج بالهدم، يعد -أيضا- من أبرز آليات الحجاج في كتيب الظاهري. وقد كشف أنه قادر -فعلا- على تسليط الضوء على مكامن التناقضات لدى القصيمي، ومن ثم إقناع القارئ بعدم صدقية ما ذهب إليه في كتبه وآرائه.

3- الحجاج بالنفي والإثبات: وهو أن ينفي المحاج ما يحاول الخصم إثباته والعكس، كما يتمثل في أن ينفي المحاج عنه المعرفة، والعلم، والمنطق وأصوله، وهو ما يتضح مما يحاول الظاهري فعله إزاء آراء القصيمي، فهو ينفي تارة قدرته وسلامة لغته، كما في قوله: "ولقد قرأت كتب القصيمي بعد ذلك بتمعن؛ فلم أجد له فكرا جديدا متحررا من بصمات أساطين الكفر والإلحاد، وإنما وجدت طراوة الأسلوب مع ضعف اللغة والقدرة على المغالطة والإثارة"⁽⁸³⁾. فالمتأمل في رأي الظاهري يجد أنه يقوم على نفي المعرفي القويم الكلي عما يطرحه القصيمي، كما ينفي أداته (اللغة)، وينفي عنه تحرر الفكر، ويثبت

عكس ذلك، فنتيجته أن القصصي مكبل الفكر، جيد الأسلوب ضعيف اللغة قادر على المغالطة، وهي نتيجة -كما يقول- توصل إليها بعد قراءة كتب القصصي، ويمكن أن نرى أن هذه النتيجة تتضمن حججاً يسوقها الظاهري إلى القارئ من أجل التأثير في قناعاته؛ ليتخلى عن قراءة هذه الكتب، ويمكن صياغة ذلك على النحو الآتي:

تخلوا عن قراءة كتب القصصي؛ لأنها تعتمد على المغالطة والإثارة وجودة الأسلوب وضعف اللغة.

أو: كتب القصصي تعتمد على المغالطة والإثارة وجودة الأسلوب وضعف اللغة إذن فتخلوا عن قراءتها.

وهو من جانب آخر حجاج يسعى إلى نفي ما أثبتته القصصي في هذه الكتب جملة وتفصيلاً، وتعطيل لها.

ويقوم القسم الثالث من كتيب الظاهري على فكرة نفي الفكرة المقابلة له، بل هو فكرة مضادة للفكرة التي طرحها القصصي في فصل له أسماه "كيف رآته العقول"، في كتابه المعنون بـ "الإنسان يعصي.. لهذا يصنع الحضارات!!"، ويؤكد الظاهري أن هذا "الفصل تَقْلُسُفٌ في الإجابة عن سؤال طرحه القصصي، ونصه: كيف أمكن أن يتفق الناس على الاقتناع بإله واحد، أو بنبي واحد، أو بزعيم واحد، أو بمذهب، أو بدين واحد، أو بأعداد هائلة من المعتقدات المتنافرة المتنافية المتناقضة البليدة الهمجية؟" (84)، لقد قدم الظاهري بذلك حجة النفي الكبرى المتعلقة بهذا الفصل، فهو مجرد "تَقْلُسُفٍ"، والتفلسف يعني -كما يؤكد المعجم الوسيط- تكلف طريقة الفلاسفة دون إحسانها (85)، وهي حجة تحاول ثني المتلقي عن عناء الانخراط فعلياً في قراءة هذا الفصل، ومن ثم قراءة الكتب التي أنتجها القصصي كلها، ويسير في هذا القسم كله على فكرة النفي ذاتها ويورد لذلك حجج القصصي، ويعمد إلى وضع ما ينفها، وينفي كل ما تذهب إليه ويثبت عكسها. وكذلك يفعل الظاهري في القسم الرابع حينما يحاول نفي زعم القصصي بـ "أن الحديث والعمل به خصم بشع للمعرفة الإنسانية والحياة.." (86). والقصصي يضع -هنا- نتيجة: أن الحديث والعمل به خصم بشع... ويسوق حججاً ضمنية مفادها أن الحديث والعمل به يدمر الإنسانية والحياة، ويعمل على تقييدها عند نقطة زمنية معينة. وذلك ما تصدى له الظاهري بحجج مضادة هدفها نفي حجج القصصي ونتائجها، ويجمل ما يذهب إليه في

الحجاج وآلياته في كتيب "ليلة في جاردن سيتي" لابن عقيل الظاهري

قوله الذي يتلوما ذهب إليه القصيصي مباشرة: "وهو دعوة سافرة إلى الانسلاخ عن الدين؛ لأنه يستمد من الحديث." (87)، ويمكن صياغة حجة الظاهري على النحو الآتي:

- ما يذهب إليه القصيصي انسلاخ عن الدين فهو إذن باطل،

- أو: ما يذهب إليه القصيصي باطل؛ لأنه انسلاخ عن الدين.

فهو - من ثَمَّ - ينفي عنه ما يثبته لنفسه من هالة الفكر والتفكير، بنتيجة أخرى تتجلى في قوله: "وبتتبع كلامه الذي نثره نثرا إنشائيا لم يراع فيه الأرقام والتفرع وارتباط العناصر" (88)، ويسوق لها الحجج الموضحة بالآتي: "رأيته يلتقي جميعه في هذه النقاط:

1- أن الحديث بدعة جللها العلماء بوقار كالسماء، واخترعوها في ظرف الفتوح العربية وما تلاها من فراغ نفسي وعقلي....

2- أن الحديث أصبح أكبر حرفة شغلت الأمة العربية عن الانطلاق والرقى.

3- أن الحديث خصم للمعرفة الإنسانية، وأنه يعارض ما تهدي إليه التجربة والعقل.

4- أن المؤلفات القديمة عقيمة.

5- تحامي المسلمين للفكر والمفكرين....» (89).

وهي حجج تبرز تناقضات القصيصي، وسوء ما ذهب إليه - من وجهة نظر الظاهري -

وتهدف جميعا إلى دفع القارئ إلى الاقتناع ببطلان ما ذهب إليه القصيصي.

ويدخل في هذا البابنفي القصيصي لقضية ويقوم الظاهري بإثبات ما نفاه القصيصي، ويرد ذلك في مواطن منها: "وفي المرة الأخرى أخذت تهذي في إنكار حتميات الفكر فقلت: لا عناية ولا غاية في الكون، وضربت مثلا فقلت: إن قائد السيارة الذي يسير بسرعة شديدة على وتيرة واحدة، ويصدم الناس لا تسمى سرعته نظاما؟" (90). ويقوم رأي القصيصي هذا على الحجة والبرهان المغالطي، إذ يهدف عن طريقه نفي امتلاك النظام لله - عز وجل -، ويسوق لذلك حججا يستند فيها إلى التشبيه بسائق السيارة الذي يقود بسرعة ويدهس الناس، وهو حجاج بالمماثلة، وهي مماثلة لا تستقيم، ترتكز على النفي محورا للتشكيك في القضية الكبرى، المتمثلة في قدرة الله على التحكم في تسيير الكون ومقتضياته، وهي القضية التي يقوم الظاهري بإثباتها بوساطة الكشف عن تناقضات القصيصي ومغالطته، إذ يقول:

"ولقد بينت لك أن الدقة والنظام والعناية دلالة على أمور كثيرة منها القوة والإحاطة والترتيب، وأن يكون كل شيء بمقدار، وأن يكون كل ذلك وفق مراد صاحبه. فإذا كانت السرعة الشديدة على وتيرة واحدة هدفاً من أهداف السائق فحذفه لذلك دقة ومهارة ونظام. وبينت لك أن عناية الله في الكون ليس اصطداماً كاصطدام السائق بالمارة، وقلت لك: لولا عناية الله لمدت البحار فغرق العالم، أو زادت حرارة الشمس فانصهرت الأرض."⁽⁹¹⁾

إن نفي الظاهري لما ذهب إليه القصيمي هو إثبات من باب آخر؛ إثبات للقضية المنفية؛ قضية كون الله قد نظم الكون على هيئة معينة، وجعل كل شيء وفق هذا النظام، وبين تناقضات التمثيل، الذي اتخذه القصيمي، متخذاً نفي النفي وإثبات المنفي وسيلة لذلك. ولقد مثل الحجاج بالنفي والإثبات أداة محورية من أدوات الإقناع في كتاب الظاهري، حاول بوساطته أن يكشف جانباً من تناقضات القصيمي، وإثبات ما ينفيه، أو ينفي ما يحاول إثباته.

نتائج الدراسة:

بعد هذه القراءة الو التحليل لمحتوى كتيب الظاهري «ليلة في جاردن سيتي» لابن عقيل الظاهري توصل البحث إلى عدد من النتائج العامة هي:

- يقوم الكتيب على الحجاج باعتباره أداة للكشف والإقناع والتأثير في المتلقي بالتخلي عن وضعية معينة، أو التمسك بوضعية أخرى.
- وقد اتخذ البحث عتبي الغلاف والمقدمة أداتين لكشف خصائص هذا الحجاج، اللتين استطاعتا -بوساطة ما تتضمنان من حجاج- أن توجهها القراءة، وتقدمها صورة استباقية لما سيأتي في الكتيب من صور للمحاجة والمناقضة والنفي والإثبات.
- تبين بعد دراسة المتن أنه قد كشف -بوساطتها- عن مكان الخل في ما ذهب إليه القصيمي في كتبه ومحاوراته وآرائه، ويقدم على وضع حجج مضادة لحججه، ونتائج بديلة عن نتائجه، كما يسعى إلى هدم ما بناه القصيمي، والهجوم عليه، ونفي ما حاول أن يثبتته، ونفي معرفته بالأصول والقواعد السليمة.

الحجاج وآلياته في كتيب "ليلة في جاردن سيتي" لابن عقيل الظاهري

- مثل الحجاج بالنفي والإثبات واحدة من أهم الآليات وأدوات الإقناع عند الظاهري في نقض حجة القصصي وتأكيد حججه المطروحة في الكتيب.
- كشف البحث عن قدرة الظاهري على تقديم معظم تناقضات القصصي، وكذلك زيف ادعاءاته، بشيء من العقلانية والمنطق، وقد تدخلت العواطف لديه، وهو ما ظهر عن طريق اتكائه على الحجاج بالهجوم والسلطة.
- تقسيم المحاجة عن الظاهري تأسست على نقد و نقض كل من القضية المعروضة والذات العارضة لها من قبل القصصي، بشكل متوازن، كما تركّز حجاج الظاهري على جميع مناطق ضعف القضية والشخصية بكل تفاصيلهما.
- إضافة إلى العديد النتائج الأخرى التي ارتبطت بحسن الإفادة من المنطق الحجاجي من قبل الظاهري لدر كل محاجة قدمها القصصي.

الهوامش:

- (¹) ينظر: محمد المحفلي، شعرية الخطاب الحجاجي في ديوان المهلاني، ضمن كتاب: النص الشعري- قراءات تطبيقية، بحوث محكمة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط: 1، 2016م، ص 678.
- (²) ينظر: حسن مسكين، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة- من التاريخ إلى الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ط: 1، 2010م، ص 154.
- (³) ينظر: محمد المحفلي، شعرية الخطاب الحجاجي في ديوان المهلاني، ص 678.
- (⁴) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، 2010م، ص 19.
- (⁵) فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال، وعبدالواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، العدد 2338، ط: 1، 2013م، ص 33.
- (⁶) ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، د. ط، 2014م، ص 10.
- (⁷) ينظر: أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب للطباعة والنشر، بيروت، ط: 1، 2010م، ص 19.
- (⁸) ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص 9.
- (⁹) ينظر: حسين مسكين، مناهج الدراسات الأدبية، ص 156، 157.
- (¹⁰) ينظر: سعيد علوش، معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر- فرنسي عربي، شرح وافٍ لنحو 750 مصطلحاً، مراجعة كيان أحمد حازم يحيى، حسن الطلب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط: 1، 2019م، ص 82.
- (¹¹) نفسه، ص 82، 83.

- (12) ينظر: كريستيان بلانتان، الحجاج، ترجمة: عبدالقادر المهييري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، د. ط، 2008م، (مقدمة المترجم)، ص7.
- (13) ينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، ص5.
- (14) ينظر: الطاهر بومزير، التواصل اللساني والشعرية- مقاربة تحليلية لنظرية رومان ياكبسون، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط: 1، 2007م، ص17-21.
- (15) ينظر رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، المغرب، ط: 1، 1988م، ص27.
- (16) ينظر: نفسه، ص28.
- (17) ينظر: نفسه، ص33.
- (18) ينظر: عبدالقادر بوزيدة، نموذج المقطع البرهاني (أو الحجاجي)، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 12، ديسمبر، 1997م، ص305.
- (19) ينظر: أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص19، 20.
- (20) ينظر: نفسه، ص19.
- (21) ينظر: محمد عبدالباسط عيد، مستويات الحجاج في النص الشعري- قراءة في دالية "عمر بن أبي ربيعة"، ضمن كتاب: النص الشعري، قراءات تطبيقية- بحوث محكمة، ص652.
- (22) أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، دار ابن حزم للنشر والتوزيع، الرياض، ط: 1، 1415هـ.
- (23) ينظر: طه عبدالرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط: 2، 2000م، ص74.
- (24) ينظر: الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص79.
- (25) عبدالله العثي، زحام الخطابات، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، د. ط، 2005م، ص38.
- (26) ينظر: الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص17.
- (27) نفسه، ص17.
- (28) ينظر: نفسه، ص14.
- (29) ينظر: نفسه، ص14.
- (30) ينظر: نفسه، ص17.
- (31) كان القصيمي يقوم بإهداء المؤلف (الظاهري) نسخا من كتبه، ويضع عليها إهداءات شخصية يحثه فيها على التفكير واستعمال العقل وقراءة كتبه لاسيما أجزاء فيها تحث على استعمال العقل والمنطق.
- (32) ينظر: طه عبدالرحمن، في أصول الجور وتجديد علم الكلام، ص75.
- (33) ينظر: عبدالله العثي، زحام الخطابات، ص36.
- (34) ينظر: ملكي شامة، الحجاج في شعر النقائض- دراسة نصين لجريروالفرزدق، دار ميم للنشر، الجزائر، د. ط، د. ت، ص46، 68، 94، 126.

- (35) ينظر: حميد لحمداني، عتبات النص الأدبي (بحث نظري)، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، الجزء 46، المجلد 12، ديسمبر 2002م، ص9.
- (36) ينظر: محمد بوعزة، من العنوان إلى النص، مجلة علامات في النقد، الجزء 53، المجلد 14، سبتمبر 2004م، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، ص408.
- (37) ينظر: جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 25، العدد 3، يناير/ مارس 1997م، ص 106.
- (38) ينظر: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد، دار توبقال، المغرب، ط: 1، 1988م، ص27، وينظر: عامر الحلواني، على عتباتها تبني النصوص، دار نهى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس (تونس)، ط: 1، 2012م، ص74.
- (39) ينظر: محمد بوعزة، من النص إلى العنوان، ص408.
- (40) ينظر: عامر الحلواني، على عتباتها تبني النصوص، ص74.
- (41) ينظر: نورة بنت علي القحطاني، العتبات في شعر جاسم الصحيح، النادي الأدبي بالرياض، المملكة العربية السعودية، ط: 1، 2017م، ص195.
- (42) ينظر: جلييلة الطريطر، في شعرية الفاتحة النصية، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، الجزء 7، المجلد 29، 1998م، ص155.
- (43) نصيرة زوزو، الفضاء النصي في رواية كتاب الأمير للأعرج واسيني، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، العدد 6، 2010، ص4.
- (44) ينظر: الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، الغلاف.
- (45) ينظر: نفسه.
- (46) ينظر: نفسه.
- (47) ينظر: شعيب حليفي، وظيفة البداية في الرواية العربية، مجلة الكرمل، مركز خليل السكاكيني الثقافي، فلسطين، العدد 61، 1999م، ص85.
- (48) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص10.
- (49) نفسه، ص16.
- (50) ينظر: فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ص43.
- (51) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص17.
- (52) ينظر: كريستيان بلانتان، الحجاج، ص147.
- (53) ينظر: نفسه، ص147.
- (54) الظاهري، ليلة في، ص14.
- (55) نفسه، ص14.
- (56) نفسه، ص17.
- (57) نفسه، ص80.
- (58) نفسه، ص83.
- (59) نفسه، ص14.

- (60) ينظر: أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص21، 22.
- (61) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص10.
- (62) كريستيان بلانتان، الحجاج، ص147-152.
- (63) ينظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفرقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط: 3، 1414هـ، المجلد: 15، مادة غثا، ص115، 116.
- (64) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص17.
- (65) نفسه، ص17.
- (66) ينظر: ملكي شامة، الحجاج في شعر النقائض، ص52.
- (67) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص79، 80.
- (68) نفسه، ص80.
- (69) نفسه، ص80.
- (70) ينظر: طه عبدالرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص69.
- (71) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص80.
- (72) ينظر: ملكي شامة، الحجاج في شعر النقائض، ص68.
- (73) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص17.
- (74) ينظر: محمد المحفلي، شعرية الخطاب الحجاجي في ديون البهلاني، ص681.
- (75) ينظر: كريستيان بلانتان، الحجاج، ص153.
- (76) فيليب بروتون، الحجاج في التواصل، ص81.
- (77) ينظر: كريستيان بلانتان، الحجاج، ص155.
- (78) ينظر: نفسه، ص155.
- (79) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص82.
- (80) ينظر: كريستيان بلانتان، الحجاج، ص131، 132.
- (81) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص82.
- (82) ينظر: كريستيان بلانتان، الحجاج، ص147.
- (83) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص17.
- (84) نفسه، ص37.
- (85) ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط: 4، 2004م، ص700.
- (86) الظاهري، ليلة في جاردن سيتي، ص57.
- (87) نفسه، ص57.
- (88) نفسه، ص57.
- (89) نفسه، ص57، 58.
- (90) نفسه، ص83.
- (91) نفسه، ص83.